الخطاب الصوفي
(دراسة في إشكاليات التلقي)

د. فارس عبد الله بدر الرحاوي
معهد إعداد المعلمين نينوى/ العراق

القبول	الاستلام
١٥ / ٠٩ / ٢٠١١	٠٧ / ٠٢ / ٢٠١١

Summary

Sofian oratory forms – thoughtfully and technically- a great historical turning in the Islamic and Arabic culture, due to what it found both differences and paradoxes in the critical thought visions which it goes round in both religious and philosophic sides. It is an authority which choose its pronunciation through an attitude, but not its pronunciation choose its meanings, that which makes it a moment text or special situation which is full of implied meanings, undeclared, but that doesn't mean we prefer meanings to pronunciation or on the contrary or differenciate between them, pronunciation remains an outer aesthetic receptacle, and its inner value is in the value of the meanings which it contains.

The value of the pronunciation lies in its meaning and the value of its meaning lies in the pronunciation it performs.

As for the technical level, we can see that Sofian oratory didn't separate from its thoughtful level, actually it added new dimensions that gave it a familiarity level that many Arab and western critics had refered to.

Such turning and others on both technical and thoughtful levels pushed us to re-read and do search in the Sofian oratory, through various and different functional readings which may be distributed among constructing, countenance, recitation and communicative that all, with there differences, aim to reach to conclude the outcome of this oratory and to react with it.

The mechanism of this reading centered in four pivots:-

1. **Duality of action and the inconsistent in the reading of Sofian oratory.**
2. **The Sofian oratory …… countenance reading.**
3. **The Sofian oratory……. The reading and experiment.**
4. **The Sofian oratory as a reading in the communication problems.**

الملخص

يشكل الخطاب الصوفي – فكرياً وفنياً – منعطفاً تأريخياً كبيراً في الثقافتين العربية والإسلامية، وذلك لما أوجده من إشكالات واختلافات في الرؤى النقدية الفكرية التي دارت حوله من الناحيتين الدينية والفلسفية . فهو سلطة تختار ألفاظها من خلال موقف ، وليست الألفاظ هي التي تختار معانيها ، وهذا ما جعله نص لحظة أو حالة خاصة يزخر بالمعاني الكامنة ، غير المعلنة، ولكن لا يعني هذا أننا نفاضل المعاني على الألفاظ أو العكس أو نمايز بينهما ، فالألفاظ تبقى وعاء خارجياً جمالياً ، ومكنونها في قيمة المعاني التي تحويها، فقيمة اللفظ في معناه وقيمة معناه في لفظه الذي يؤديه . أما على المستوى الفني ، فإننا نرى أن الخطاب الصوفي لم ينفصل عن مستواه الفكري ، وإنما أضاف له أبعاداً جديدة منحته مستويات معرفية أشا ر إليها نقاد عرب وغربيون كثيرون.

إن مثل هذه الالتفاتات وغيرها على المستويين الفكري والفني ، دفعنا لإعادة القراءة والبحث في الخطاب الصوفي ، من خلال قراءات وظيفية متنوعة ومختلفة تتوزع بين البنيوية والسيميائية والقرائية والتواصلية ، تهدف جميعها مع اختلافها محاو لة الوصول إلى استكناه معرفية هذا الخطاب، والتفاعل معه.

ومن هنا كانت آلية هذه القراءة تتمحور في أربعة محاور :

١. **ثنائية الفعل والمغايرة في قراءة الخطاب الصوفي.**
٢. **الخطاب الصوفي.. قراءة سيميائية.**
٣. **الخطاب الصوفي.. القراءة والتجربة.**
٤. **الخطاب الصوفي قراءة في مشكلات الاتصال.**

توطئة:

يشكل الخطاب الصوفي – فكرياً وفنياً – منعطفاً تأريخياً كبيراً في الثقافتين العربية والإسلامية، وذلك لما أوجده من إشكالات واختلافات في الرؤى النقدية الفكرية التي دارت حوله من الناحيتين الدينية والفلسفية ، فعُدّ هذا الخطاب – فكرياً – خروجاً على الـسنة والشريعة ، وخطاب كفر وضلال، وازدادت أبعاد هذا الخلاف بعدما تبلور في مذاهب فكرية وفلسفية كان لها شأن على مجرى الوعي الجمعي العربي الإسلامي، وتمثل ذلك بفكرة الحلول عند الحلاج ، ووحدة الوجود عند ابن عربي، والإشراق عند السهروردي، والشهود عند عبد الجبار النفري.

أما على المستوى الفني ، فإننا نرى أن الخطاب الصوفي لم ينفصل عن مستواه الفكري ، وإنما أضاف له أبعاداً جديدة منحته مستويات معرفية طلب دراستها نقاد عرب أمثال أدونيس في

كتابيه (الثابت والمتحول)، و(الصوفية والسريالية)، كما أشار إلى ذلك مصطفى ناصف في كتابه (محاورات مع النثر العربي) عندما درس نثر أبي حيان التوحيدي في (الإشارات الإلهية)[1].

إن مثل هذه الالتفاتات وغيرها على المستويين الفكري والفني ، دفعنا لإعادة القراءة والبحث في الخطاب الصوفي ، من خلال قراءات وظيفية متنوعة ومختلفة تتوزع بين البنيوية والسيميائية والقرائية والتواصلية ، تهدف جميعها مع اختلافها محاولة الوصول إلى استكناه معرفية هذا الخطاب، والتفاعل معه.

ومن هنا كانت آلية هذه القراءة تتمحور في أربعة محاور :

١ - **ثنائية الفعل والمغايرة في قراءة الخطاب الصوفي.**

٢ - **الخطاب الصوفي.. قراءة سيميائية.**

٣ - **الخطاب الصوفي.. القراءة والتجربة.**

٤ - **الخطاب الصوفي قراءة في مشكلات الاتصال.**

ثنائية الفعل والمغايرة في قراءة الخطاب الصوفي

قد نخالف المقولات النقدية العربية القديمة التي أتى بها الجاحظ ، التي تؤكد أن للألفاظ فضلاً في تأدية المعاني ، من منطلق أن المعاني مطروحة في الطريق ، وأن العربي والعجمي والبدوي يعرفها [2]، ونقول، أن المعاني تبتكر الألفاظ، ومثلما المعاني مطروحة في الطريق ، فكذا هي الألفاظ مادامت الألفاظ تتغير مداليلها – أي معانيها – من زمن إلى زمن آخر ، فالألفاظ لها حياتها في الولادة والنشوء والشيخوخة والموت لتتجدد حياتها بمداليل جديدة.

ففي الخطاب الصوفي نرى أن المعاني سلطة تختار ألفاظها من خلال موقف ، وليست الألفاظ هي التي تختار معانيها ، فكان النص الخطابي الصوفي نص لحظة أو حالة خاصة يزخر بالمعاني الكامنة ، غير المعلنة ، ولكن لا يعني هذا أننا نفاضل المعاني على الألفاظ أو العكس أو نمايز بينهما، فالألفاظ تبقى وعاء خارجياً جمالياً ، ومكنونها في قيمة المعاني التي تحويها، فقيمة اللفظ في معناه وقيمة معناه في لفظه الذي يؤديه . ولكن حين تبتكر المعاني الألفاظ فإن ذلك مما ينبثق عن النفس وخلجاتها، فبين النفس والمعنى طاقة توحدٍ وجداني وعقلي وجسدي تبتكر ا لألفاظ وتفجرها في تشكيلات لغوية متنوعة تتجاوز أزمنتها كما هو في التعبير الحداثي.

(١) ينظر : القضايا النقدية في النثر الصوفي (المقدمة)، وضحى يونس، منشورا ت إتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦، ٧ – ٨.

(٢) ينظر :الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣ / ١٩٦٩،١٣١–١٣٢.

ولعل أبا حيان التوحيدي كان من أوائل من تنبه إلى دلالة المعنى وقيمته العليا وفضله وعلاقته باللفظ ونوه إليه من خلال ما يعمل المعنى في النفس ، حين نقل عن أبي بكر القومسي رأيه فـي المعاني والألفاظ بقوله : "وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي ، والمعنى عقلي، ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان يقفو أثر الطبيعة بأثر آخر من الطبيعة ، ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان ، لأن مستملي المعنى عقل ، والعقل إلهي؛ ومادة اللفظ طينية ، وكل طيني تهافت "(١)، وإذا كان أبو حيان قد سعى إلى جدلية المزاوجة بين الألفاظ ومعانيها من أن أحدهما يتمم عمل الثاني ويكمله ، فإننا نرى أنه ممن تحيز للمعاني على الألفاظ بدليل قوله أن المعنى إلهي وما كان إلهياً فهو في الرتبة أعلى وأجل ، ولا يقف التوحيدي عند هذا الحد ، فهو عندما يرى أن المعنى جوهر العقل وأن اللفظ بهرجه ، فيقول: "والعقل يطلب المعنى ، فلذلك لا حظَّ للفظ عنده وإن كان متشوقاً معشوقاً . والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة؛ أن المعنى متى صور بالسانح والخاطر وتوفى الحكم ل م يُبل بما يقويه من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والإناء والظرف"(٢).

ومن هنا ندرك أهمية المعنى عندما تؤول الألفاظ في سياقاتها اللغوية على نحو ما ورائها من معان تمنحها طاقات متفجرة تتجاوز كل السياقات المتداولة في اللغة والمنطق.

***

يشغل الخطاب الصوفي في الأ دب العربي- بوصفه نصاً أدبياً من نمط خاص - ومن مفهوم الخطاب بأنه "النظام الرمزي الذي يعين مجال الدلالة والفعل لمختلف العناصر المادية المنضوية تحته "(٣) - مكانة كبيرة ، إذ يشتغل كل من اللفظ والمعنى على مغايرة الآخر في النص، ويتقابلان في تفكيك إشكالية الإنسان وحلها، بفعل التحولات الفكرية والنفسية والروحية والجسدية، وبفعل وعي الذات بكل قدراتها التي تتفاعل أثناء ولادة هذا الخطاب ، وارتباطه بحالة الموقف الخاصة به ، فضلاً عن إحساس صاحب الموقف بالتوترات اللاإرادية التي تعتريه وهو يبحث عن لحظات التجلي ، مدركاً أن المكان والجسد في حالة التحام صميمي . وعلى هذا الأساس فإن هذا الخطاب هو خطاب متعال على أي نص آخر ، متحقق بتعالي الموقف المتحكم به، من خلال الأنظمة التي تتحكم في آلية التفعيل الذاتي في حركية التواصل بين كل من (اللفظ / المعنى)، وفي تشكيل متغير يختلف عن الأشكال الخطاب ية الأخرى ، فيكون قابلاً للقراءة

(١) المقابسات، تحقيق وشرح حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية بمصر ط ١/ ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م، ٧٥. وقد عرضت الباحثة وضحى يونس هذه الإشكاليات والمقولات في كتابها (القضايا النقدية في النثر الصوفي/ ١٩-٣٠).

(٢) المقابسات، تحقيق وشرح حسن السندوبي، ط١/ ١٩٢٩. ٢٤٥.

(٣) المدخل الفلسفي للحداثة، ابن داود عبد النور، منشورات الاختلاف، ط١،٢٠٠٩، ٣٣١.

المتعددة والمغايرة والتساؤل والتفسير والتحليل والتأويل خارج نظام الفوضى المختلقة في نظم المقاطعة التي تطرحها بعض المفاهيم الحداثية في موضوعات الثابت والمتحول ، وعدم احتمالية إقصاء أحدهما (اللفظ أو المعنى) على حساب الآخر انطلاقاً من اتحادهما التام ، عبر فضاءات مرورية معرفية تعبر عن الانتماء الإنساني للكون والحياة، ومتكيفة مع حالة الانصهار التي تمثل الحالة الذاتية / الموقف لصاحب الخطاب في لغته الصوفية، وهي لغة معرفية خاصة لها طابعها السياقي المتميز ، والمعبر عن حالة خاصة لا يدركها إلا الصوفي نفسه ، عندما يتشكل الوعي التام بحتمية السؤال وبشكل غير طبيعي، متجاوزاً كل ما يبدو في الحياة على أنه أمر سلبي ليس له معنى في هذا الوجود ، لأن ما من شيء أوجده الخالق عز وجل إلا وله وجود ، وله مغزى ومعنى في هذا الوجود ، فتصبح اللغة الصوفية عندئذ مجمو عة من الشفرات التي توصّفها وتتحكم بها (ذاتية الموقف) الذي يكون فيه الصوفي، هذا من جانب.

ومن جانب آخر، فإن هذا الخطاب المنجز هو في حقيقته مغامرة ، يتحقق فيها الاكتشاف فيخضع لتنبؤات تحكم متلقيه – بشكل أو آخر – من خلال استنطاق النص ، وتأويل الألفاظ والمعاني وبتنشيطها بمعان أخر ، في سبيل إجلاء رؤيا تقترب من اكتشاف باطن النص وطبقاته ودلالاته المضمرة بوعي المغايرة والتساؤل.

إن اتحاد ثنائية اللفظ والمعنى في الخطاب العربي الصوفي هو اتحاد تفاعل هذه الثنائية بالروح من خلال الموقف حين تكون حرية التعبير مطلقة في فضائها الخاص بها، إذ يتأسس هذا الخطاب وفق صيرورة يشكلها بعد معرفي خاص بفعل التواصل الروحي اللامرئي متجسداً في الموقف/الحالة، وهو تطبيق حقيقي لا افتراضي لمقولة عربية مفادها (لكل مقام مقال) منتج أو تداولي مادامت حركة انبثاق المعنى لا تكتمل إلا بثلاث دوائر ذات دلالات ، تتلخص بدائرة الدلالة المعجمية، ودائرة الدلالة السياقية ، ودائرة الدلالة المقامية [١]. لذا، فالنص الصوفي يعتمد في إنتاجه على الموقف والحالة التي يمر بها الصوفي روحياً لا جسدياً ، فهو "ليس مجرد أداة توصيل، بل مستوى تعبيري يناظر الحالات الصوفية النفسية والروحية ... ينبع الجمال على نحو عفوي من داخله... هو كلام الباطن، كلام الماوراء، واللاشعور لأن التجربة الصوفية التي ولدته هي تجربة إبحار في مناطق مجهولة من الفكر والروح والنفس..."[٢].

ومن هذا المنطلق ، فإن هذا الاتحاد والتفاعل الخلاق بين اللفظ والمعنى من جهة ، ومخاضات التجربة الصوفية في حالتها الروحية من جهة أخرى ، بوصفها كلاً موحداً يتجلى في (الموقف الصوفي)، يتولد عنه انبثاق معان جديدة غير متداولة على مستوى الثابت العربي والإسلامي في المجالين الثقافي والفقهي ، تؤسس في تجلياتها هيكلية هذا الخطاب ، الذي يقوم

(١) ينظر : شعرنا العربي المعاصر والزمن المضاد، عبد السلام المسدي، مجلة فصول (المصرية) الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج١٦، ع٢٢،١٩٩٧،١.

(٢) القضايا النقدية في النثر الصوفي، وضحى يونس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،١٠١،٢٠٠٦.

على التغيير والتحول خارج الثوابت المتعارف عليها ، التي تؤسس مقومات الشعر والنثر عبر منافذ العقل والعاطفة والخيال ، وذلك من خلال تمحور ذاتي جديد "وهو في بعده الفيزيقي – طبيعة واجتماعا – مسعى العقل للكشف السليم عن القوانين الداخلية ، وفك رموز الحياة ، وفض غموضها المستتر ،وتسخيرها للاتجاه الاستخلافي من منظوره الإسلامي قصد العمارة والنماء والاستقرار ، وهو للروح معارج للرقي والسمو نحو الأعالي ابتداء من الجمال المحسوس ، وارتقاء نحو الجمال المغيب، فهو متعة في المجال الأرضي وانتشاء في المجال السماوي الفوقي"(١).

ولعل هذا ما دعا الكثي رين من أئمة وفقهاء ومفكري وسياسيي العصر الذي ظهر فيه المتصوفة إلى رفض هذا الخطاب في زمانه ، بل إلى نبذه ، وكان من نتائجه مأساة الحلاج المعروفة تأريخياً، وغيره من المتصوفة المسلمين.

ولما كان لكل خطاب فضاؤه الخاص به ، بفعل التجربة الصوفية وحالتها ، فإن فضاءات الخطابات الصوفية لا يمكن عدها أفضية اعتيادية، فهي أفضية تتعارض مع الفضاءات الواقعية والمتخيلة المعروفة ، كما تتجاوز الحلقات المتداولة التي تربط الواقع بالخيال ، إذ تتمتع بطابع الحلول أو الإشراق في وسط ذاتي مغلق بحكم الموقف ، يقوم على العلاقات التي يكونها ويفرز ها الوعي المتحكم بالوجود والكون ، والمتميز بالمغايرة. وهذا ما جعلها تتعارض مع قوانين الطبيعة في لغة خاصة، تتفجر وتتعارض مع قوانين القياس والسياقات اللغوية المعجمية ذاتها.

لذا، فهي فضاءات مواقف (رؤيوية) خاصة وفردية في آن ، تقوم على العلائقية الوجدانية التعبدية بين المعبود والعابد، إذ تتجاوز في أبعادها الرؤى الإنسانية العامة إن كانت رؤى وعلائق تعاليم وضعية أو منهجية أو سلوكية ، بوصفها سلوكيات خاصة ، تنبثق من خصوصية العلاقات القائمة على "الربط الوثيق المستقل بالوجد والحب ، وملهمات الأنس والقرب ، فأصبح الصوفي يرى كل شيء في الوجود إنما هو بمثابة مرآة يرى فيها وجه الله تعالى وقدرته ورحمته "(٢). فهي رؤى استدعاء بعيدة عن قوالب التنميط والتقولب المتداولة والمترسخة في أذهان عامة الناس . فضلاً عن أنها رؤى تحول دائم عن الواقع الذي يعيشه الآخرون فتمتد إلى آفاق أبعد ، وذلك نابع من الحالة / التجربة الصوفية التي ترى أن "التوتر الداخلي من العوامل الفعالة في نشوء التجربة والرغبة في التعبير، التوتر الذي ينشأ عن الألم الذي ينبثق بدوره عن عدم الانسجام بين الإنسان والعالم "(٣) في خضم عالم مليء بالفوضى المقصودة ، فيتمثل الموقف الصوفي عندئذ بالرفض

---

(١) إيقاع التغيير في نماذج من الشعر الإسلامي المعاصر ، جمال أمين ، سلسلة دفاتر نقدية (١)، مطبعة شروق – أكادير، ط١، ٢٠٠٥، ١٩.

(٢) ما هو التصوف، الشيخ أمين الشيخ علاء الدين النقشبندي، ت: د. محمد شريف أحمد، طبع الدار العربية، بغداد، ١٩٨٨، ٤٥. نقلا عن: التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي،٥.

(١) في النقد الإسلامي المعاصر، د.عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٩٧٢، ٢٦.

المستمر لحالة الواقع التي يعيشها ، ولربما يصل الأمر إلى المقاطعة التامة مع هذا العالم على أنه عالم يعيش على تهميش الحقيقة الكونية وعدم إدراكها.

وما خروج المتصوفة عن المألوف والثابت في حياة الناس وطرائق اعتقادهم إلا دليل على هذه المقاطعة ورفضهم للواقع الذي تغلب عليه هيمنة المؤسسة بكل أشكالها المعروفة . وهي في واقع الحال مقاطعة ذاتية، وتعني بذلك تفرد الذات بما آلت إليه من حال وتحويل ذلك إلى سلوك خاص منفرد ، بغض النظر عما يمكن أن تصير إليه حال الواقع بكل مردوداته السلبية والإيجابية، وهذا يعني "المقصود بالذاتية هنا هو أن المتعلم حينما يتعلم ويكتشف ويكتسب تجاربه بنفسه ويحصّل معارفه بذاته فإنها تتلبس بذاتيته وتتخلق بين نفسه وبين المعارف ألفة تجعل المرء يأتي الأفعال أو السلوكيات عن رضى وطيب خاطر . تصير السلوكيات أقرب إلى فطرة الإنسان، وما كان كذلك يصعب زواله على عكس ما كان عن تصنع"(١).

إن الذاتية التي يتلبس بها الصوفي هي ذاتية حلول ذاتي في فضاء لا يدرك حدوده إلا الصوفي نفسه، بوصفه فضاء يتجاوز الحدود الجغرافية للمكان الذي يوجد فيه ، إنه فضاء مطلق تحتمه لغة تتمتع بأفضيتها خارج معاني القصدية المباشرة ، لتشكل دلالاته ا المحتملة بشحنات وطاقات تعتمل فيها التجاذبات ، وهي دلالات أفضية مفتوحة بين الصوفي والمركز الذي يتوحد معه، توحدهما اللغة ، وهي لغة صراع نفسي متشدد بين الذات والفضاء يغلب عليه الترميز ، ولكن دلالاته تحيل إلى فضاءات الصوفية وعوالمها ، وهذا ما يوحي بالانتقال من ا لعوالم المادية التي تحيط بالمكان الجغرافي / المادي إلى العوالم الروحية عبر فضاءات مطلقة ، فالصوفي في وجده ينتقل من الأمكنة الواقعية إلى فضاءات غير مدركة أو مألوفة في واقعه المادي.

ومن هذا المفهوم يمكن القول إن اللغة الصوفية تخرج عن ملفوظيتها المحددة في خضم مؤثرات متعارضة ومتناقضة مع أنظمة اللغة المتداولة (الواعية) إلى أنظمة لغوية جديدة تتجاوز الوعي الجمعي لتصبح لغة اللاوعي، من منطلق مفاده صيرورة الحالة وهيئة الموقف.

الخطاب الصوفي... قراءة سيميائية

يشكل الخطاب الصوفي بعده الحقيقي، ولحظة استجلائه/ الزمان من خلال لحظة التوتر النفسي الذي يحتمه الموقف / المكان ، ومن هذا المفهوم يتبين أنّ عمق هذا التوتر النفسي والجسدي ذو طابع معقد في تركيبه الذاتي الآني، وفي ذات الوقت يعبر عن محتوى دلالي متعدد بسبب تعقيده، وتعدد معانيه، وعدم التعاقد على توحيد فهمه وإدراكه وقراءته، لذا، فهو يفضي إلى

(٢) التجربة الصوفية، د. إبراهيم ياسين، مجلة أدب وفن، www.adabfan.co).l)

تجاوز الحالة التي ترى "أن كلاً من المعاينة والحدس هما اصلاً من منتجات الخطاب "[١]. ومن هنا يكمن ذلك العمق في التساؤل الصوفي نفسه ، ذلك التساؤل الذي يفضي إلى المعاني السائلة وليس إلى المعاني التي تكون جوابا للسؤال ، وهذا ما جعل سؤال الصوفي م تاعه الذي يتلذذ به لاستحالة إدراك الجواب خارج الموقف. فالتساؤل دلالة مدركة في سياقها العام ، ولكن الجواب له دلالات أخرى لا يدركها إلا الصوفي نفسه ، عندما يواجه من خلال نصه "العالم والآخر على نحو يكشف مشكلات الهوية والاستلاب ومآزق التصدع والانشراخ في الرؤية إ لى الذات والعالم والآخر وانعكاساتها على مرايا النص "[٢]، وهذا ما يمنح الخطاب الصوفي دلالاته السيميائية المتعددة، ويطرح التساؤل : هل أن الخطاب الصوفي يخضع للإدراك الحسي أم لا يخضع ، وإذا كان الجواب نفسه تساؤلا مستمراً، فهل لهذا الجواب معنى خارج الموقف...؟

إن حقيقة الخطاب الصوفي المتمثل في موقفه تجعلنا – وبلا شك – نقول "يجب التساؤل عما إذا كان للإدراك الحسي معنى وعن مصدر هذا المعنى" من منطلق أن "الدلالة لا تنبثق من علاقة كلاسيكية الأسلوب بين مستوى التعبير ومستوى المضمون، بل في بادئ الأمر ، من خلال صيرورة processus تسمح بالعبور من إحساس رنان إلى إدراك حسي.. ومن ثم إلى تأويل"[٣].

والتساؤل هنا يفرض نفسه حول مديات الإدراك الحسي لدى الصوفي ، ومستوياته، وهل ثمة توازن وتماسك وتفاعل مابين الذاتي والموضوعي ، أو ما بين المرئي والغيبي ، أم أنه ناتج عن تداع غير مألوف وغير مقصود...؟ والجواب يكمن في تجليات الخطاب بوصفه نصاً لا في خصوصيات الذات الصوفية ، مع وعي بخصوصيات هذه الذات وعدم إمكانية تجاهلها ، من منطلق أن كل ذات لها ما يحددها من مكان وزمان ، ومن منطلق أن هذه الذات هي ذات معطية، ومنتجة لهذا الخطاب ، لذا، لا يمكن تهميشها إذ "إن معطيات المهمش استطيقياً مع المحوري مستندة إلى طروحات ومسميات تتخذ من المتشظي عنواناً لها ..لتمنح من خلاله ارتساماتها من خلال أشكالها الجديدة عبر تأويلية البنى النصية بتمظهراتها ذوات المديات المفتوحة، إذ لا سلطة لخطاب النظرية.. فالنسبي وليد فاعلية الذاتي الذي يترك بصماته لمعطى يعد ملقى وجودياً استطيقياً"[٤].

(١) السيمياء والتأويل ، روبرت شولز ، ت: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ٢٧.

(٢) المكان والجسد والقصيدة : المواجهة وتجليات الذات ، فاطمة الوهيبي ، المركز الثقافي العربي (مشترك) بيروت، ط ١، ٢٠٠٥، ١٤٢.

(٣) سيمياء المرئي، جاك فونتاني، ت: د. علي أسعد،دار الحوار ، سورية، اللاذقية، ط١، ٢٠٠٣، ٣٥.

(١) دراسات في الخطاب الجمالي البصري، د .علي شناوة و ادي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١،٢٠٠٩. ١٣١.

بيد أن هذه الاستطيقيا التي تعني علم الجمال إن كان ناجماً عن حس ظاهر أو عن حس باطن[1] وفق ما تقدم توحي تقاطعاً مع التصورات والشطحات الصوفية ، وإذا كانت كذلك، فإنها في حقيقة الأمر لا تتقاطع من حيث كونها تجر بة ذاتية بحتة ، تتجاوز الواقع فتمنح الفعل / الموقف تمظهراً رؤيوياً فعلياً من نمط خاص يُقَوِّم حقيقة الموقف وخصوصيته المحدودة.

أما مقايسة الخطاب الصوفي بالزمان والمكان ، فهو خارج زمانه ومكانه المتداولين ، وهنا يمكن أن نتكهن بغياب الزمان والمكان المحددين عنه ، إذ إن الصوفي لم يشغل نفسه بوصف المكان الجغرافي المحدد ، وإنما شغل نفسه بالمكان المطلق اللامحدود ، ذلك المكان الذي يعبر عن مسرح حركة السلطة العليا الذي تتوحد فيه الرؤيا والكشف ويعبر فيه الصوفي عن الحالة اللاشعورية والبوح الوجداني في فضاءات الحب الإلهي، بفيض من نشوى وتداعي الذات والجسد في حضرة المتجلي.

ومن هنا يمكن القول: إن المكان المغيب هو فضاء نصي آخر غير معروف على حقيقته عند الآخرين من غير الصوفيين، وهذا ما يجعل هذا المكان فضاء أوسع من نص الخطاب نفسه (بالتمكين والاستحالة)، بل هو الذي يوسع فضاء النص / الخطاب على مستوى اللغة الصوفية . وهذا ما يعطي لهذا الخطاب سمات وخصوصيات تفتقدها الخطابات الأخرى غير الصوفية .

إن الخطاب الصوفي نص قائم بوجود علته في الموقف / الحالة اللامرئية ، فهو مشرع معرفة للدلالة كما يصوغها الخطاب داخل النصوص ليشكل منظومته الخاصة به [2] التي تقوم على التجربة الصوفية ذاتها ، وهي تجربة "في جوهرها تجربة انفتاح الأنا على المعنى الباطني للوجود كله، وهذا الانفتاح مرهون بالقدرة على التواصل بين الأنا والكون الذي هي جزء منه ، فمن الطبيعي أن تمثل التجربة الصوفية تجربة موازية لتجربة "الوحي" النبوي. الفارق بين تجربة "النبي" وتجربة "الصوفي" أن التجربة الأولى تتضمن الإتيان بتشريع جديد ، بينما يكون فهم الوحي النبوي بالاتصال بنفس المصدر هو مهمة "العارف" في التجربة الصوفية "[3]، فقبول الخطاب الصوفي على محمله هو قبول المعنى على اللفظ، ولو كان المعنى محصوراً أو مضموراً في لفظ لا يفسره على حقيقته، وليس العكس، فهو بحث في معنى المعنى على أقل تقدير، بحث عن الوجود خارج حدود الموجود، إذ يرى مارتن هايدجر أن "انكشاف الموجود وظهوره يخفي وضوح الوجود ويغلفه . فالوجود ينسحب عندما ينكشف الموجود"[4].

---

(٢) الاستطيقا والذاتية، أمّ الزين بنشيخة المسكيني،.www assuaal.net

(٣) ينظر: القراءة السيميائية والمشروع اللاهوتي، لويس باني، ت : نزار التجديتي، مجلة دراسات (سيميائية أدبية لسانية) المغرب، ع٥، ١٩٩١،١٠٨.

(١) هكذا تكلم ابن عربي، د. نصر حامد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ١٣٩.

(٢) نقلا عن: أسس الفكر الفلسفي المعاصر، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، البضاء، ١٩٩١ ،٤٩.

وبناء على ما تقدم ، يمكن القول ، أن الخطاب الصوفي هو نسق إشاري من نوع خاص ، تتمظهر فيه العلامات السيميائية في كونه "ما هو إلا تجل ملموس لما يعتمل في النفس ، ويأتي دور العلامة اللسانية بوصفها حاملة للفكر وقادرة على إحضار ما هو غائب لتمثيل الداخل (الفكر) بواسطة الخارج (اللغة)"[١].

إن عملية تحديد هذا التمثيل يكمن في وعي عدد من المحتويات الكامنة ، التي تشكل قدرة التفعيل الديناميكي في هذا النص / الخطاب، وهي حدود لا يمكن لها أن تتفاعل مع بعضها إلا باتحادها (الداخلي)، إذ إن حدود اللغة الصوفية تتجاوز ظاهرها ، وذلك بما تشكله من طاقات متحررة، ومختزلة إلى حد لا يتشابه مع طاقات اللغة في أي نص آخر . ولعل هذا ما ينعكس في حدود طاقة صورة الموقف في الخطاب الصوفي ، فضلا عن طاقة الصوت الغائب في هذا الخطاب، وهو يتشظى إلى دلالات كثيرة، ممرمزة، لا تعرف حقيقتها إلا بالتأويل.

الخطاب الصوفي.. القراءة والتجربة

إن أهمية الخطاب الصوفي تكمن في أبعاده الدلالية المغلقة من خلال فضاءات غير مدركة، لذا فهو ليس خطاباً سطحياً مكشوفاً في قراءته ، وإنما يحمل في صيرورته الكثير من الرموز التي يصعب فك إشكالها ، فيصبح عندئذ كل شرح له تأويلاً محدوداً ، يتجسد في حدود قراءته العادية وهذا ما يجعله خطا باً غامضاً في كثير من نصوصه . ولعل هذا ما جعل عدداً كبيراً من النقاد العرب في العصر الحديث أمثال (زكي مبارك، أدونيس، مصطفى ناصف، ألفت الروبي، سعاد الحكيم، نذير العظمة، محمد غازي عرابي، عبد الكريم اليافي، محمود قاسم، عبد الرحمن بدوي، نصر حامد ابو زيد ، محمد بنعمارة)، ومن النقاد المستشرقين (رينولد نيكلسون ، هنري كوربان، لويس ماسينيوس، آسين بلاثيوس) وغيرهم يولون اهتمامات كبيرة بهذا الخطاب.

ولعل الرؤية النقدية الأدونيسية للخطاب الصوفي بوصفه (تجربة) على مستوى الكتابة – بعيداً عن القضايا الدينية – كان لها شأن صائب في التحليل والمقاربة النقدية والإبداعية ، لأنها فتحت مجالات جديدة موسعة أمام الإبداع الأدبي والفكري معاً ، إذ يرى أدونيس أن التجربة الصوفية ليست "في إطار اللغة العربية ، مجرد تجربة في النظر ، وإنما هي أيضا ، تجربة في الكتابة . إنها نظرة أفصح عنها بالشعر ، وزناً و نثراً ، أو بلغة شعرية ، إضافة إلى لغة البحث النظري، والشرح. وهي في ذلك، على صعيد الكتابة، حركة إبداعية وسّعت حدود الشعر ، مضيفةً إلى أشكاله الوزنية، أشكالاً أخرى نثرية نجد فيها ما يشبه الشكل الذي اصطلح على تسميته ، في

---

(٣) السيميائيات الواصفة (المنطق السيميائي وجبر العلامات)، د .احمد يوسف، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٥، ٥٣.

النقد الشعري الحديث ، ب(قصيدة النثر). وبدءاً من هذه الكتابة كان ينبغي أن يتغير مفهوم الشعر داخل النقد العربي، وأن يؤسس لمنظور جديد في تحديد الشعر وفهمه"[١].

إن مفهوم التجربة الصوفية في الكتابة يقوم على التجاوز المحض لحالة الواقع ، لا على أساليب الكتابة العربية شعراً ونثراً – وحسب – بل على مضامينها ، بوصفها تجربة غير مصطنعة، تقوم على العلاقة بين الصوفي ومناجاته في موقفه ، وهي في الأصل علاقة تجربة حية يعيشها بكل طقوسها الخلوية، التي تبعث في نفسه توتراً لا يمكن وصفه في حالته بالباطني فيوميء الخارج بحالة والباطن بحالة ثانية – قد تكون مقصودة في أغلب الأحيا ن، بوصف الباطن عقيدة خاصة بأصحابها، ولكن يمكن وصف التوتر الصوفي بالداخلي لأنه "قد يدفع إلى (اللا انتماء) والذي قدم لتاريخ الآداب والفنون شخصيات على قدر كبير من الإبداع "[٢]. واللا انتماء هنا مقصود في خضم حالته وتجربته الخاصة ، بعيداً عن الذاتي المتموضع في ال واقع الحياتي اليومي.

إن مجالات البحث عن المداخل العملية في فحص الخطابات الصوفية واستكناه مداليلها تكتسب أهميتها من صعوبة القدرة على تحليلها، وإمكانية تعدد تأويلاتها، لما تتميز به من حالات الإبهام التي تمنحها السعة في المغايرة المعتادة التي تتعدى المنطق وبر اهينه ، كما تتعدى تصورات الواقع والمعقول المتعارف عليها ، وهذا ما يجعلها تستأثر بنفسها بوصفها نصاً يَتمكَّن من.. أكثر مما يُتمكَّن منه ، من حيث الوظيفة الذاتية التي أداها في حالته الأولى عند التكوين في الحالة التي يعبر عنها **بالموقف**، وهي وظيفة تتمحور سلطتها من خلال العلاقة بين الصوفي ونصه الذاتي، تلك العلاقة التي تخلق لذاتها فضاءات خاصة بها ، لها من المظاهر التي يتميز فيها التلميح ، ويغيب عنها التصريح ، فيكسبها قوة الإشارة والانزياح لتأويل مستمر يقوم على ارتباطات "تخترق دوائر الأصل المشترك ، وتقيم صلات توجب تشابك تلك الدوائر (الأصول) بدوائر تطورها"[٣] مع حالة المتلقي وقدرته على القراءة المتنوعة التي لا تعيق النص عن الحركة.

إن الفضاءات الدلالية في الخطابات الصوفية – عند التكوين – لها فعالياتها المتعالية في نفس الصوفي ، تلك الفعاليات الإشارية التي تشكل انتماءها للحالة الخاصة التي يعيشها . لذا، يمكن القول: إن النص الصوفي بوصفه خطاباً هو **نص اللحظة كما أنه نص الموقف** ، له دلالته الكامنة في نفسه، غير قادر على إعادة نفسه وحالته إلى تلك اللحظة الأولى عند ظهوره وجلائه؛ **إنه نص خال من التوأمة والتشابه.**

إن نص اللحظة أو كما أسميناه ب نص الموقف هو نص إشاري بكل مقوماته ، فإذا ما اعتبرناه مقولة أو مقولات معرفية مؤسسة في كليته التعبيرية ، فإن ذلك يعني ، أنه لابد من وجود

---

(١) الصوفية والسوريالية، أدونيس، دار الساقي، ط٢، ١٩٨٥، ٢٢.

(٢) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، د.عمادالدين خليل، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ٥٣.

(٣) الانتماء في الشعر الجاهلي، د. فاروق أحمد اسليم، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ١١.

علاقات ارتباط بينها وبين النظم التي تؤسسها لاعتبارات المركز والسلطة التي تتمحور فيها ، وفعالية اللغة التي تحتوي هذا الموقف أو ذاك هذا من جانب ، وبينها وبين القوانين الحتمية الاجتماعية التي تعد فعالية اللغة إحدى مكوناتها بما تشكله من إدراك لكنه العلاقات وتفاعلاتها ، بما في ذلك التغيرات الحاصلة في هذه العلاقات من جانب آخر.

بيد أن الاختلاف الحاصل بين موقف الصوفي والمواقف الإنسانية ا لأخرى لدى الآخرين من عامة الناس تفرض القول، أن هذه المقولات الصوفية تعتمد على منطق سلطة المركز الحاكم والموجه في ذات الموقوف في موقفه ، وهذه حالة غير عادية تقوم على وعي وإدراك لحتمية "منطق خرق القانون الاجتماعي "(١)، إذ إن ارتباطها بسلطة المركز يعمد إلى تقاط عها مع النظم والسلطات الأخرى – مهما كانت قوة فعاليتها – فضلا عن "الاختلافات الموجودة بين العقود الاجتماعية المنظمة ... (ف) تجد تفسيرها المنطقي في شكل التخارج الأولي من الأولانية إلى الثانيانية"(٢)، وهو تخارج غير حقيقي لا يزيد عن تمظهرات وتداعيات في تخارج المعنى الظاهري من منطلق محدودية الإمكانات العقلية للمتلقي مهما كانت سعتها وقوتها أمام فاعلية سلطة المركز وقدرتها في عملية الخرق اللامتوقع خارج حدود العقل والمنطق . وهذا ما يجعل الواقف مقيداً ومحدداً بموقفه، تحت سلطة المتسلط على الموقف.

ويعني هذا أن التخارج ال ثاني الذي يصل إلى التأويل هو تخارج مزدوج في حقيقته إذا اعتبرنا (الثانيانية) مقولة يؤسس عليها النص الصوفي من قبل المتلقي ، "لأنها تستقطب مرحلتين تمثيليتين مختلفتين : مرحلة التحققات ومرحلة التحيينات . وهو ما يعني أنها نستقطب مرحلة التخارجات الأولية التي تشكل جس را ضروريا للعبور نحو التقنين وبناء السنن ، ومرحلة التحيين الوجودي للسنن القائمة المتحكمة في تأويل الموجودات"(٣).

أما حقيقة هذه المقولات، وبحثا عن المعاني الأخرى غير الظاهرية ، فإنها تبقى مستعصية في جوهرها على متلقيها بحكم قوة سلطتها المعرفية ، وتعبيرها الذاتي (المطلق) عن حالة لا تتسنى للآخرين (معرفياً) من غير الصوفيين، إذا فهمنا أن المعرفة هنا هي معرفة غير صناعية ، وليست قابلة للتصنيع الذي يقوم على المؤسس العقلي نظرياً وعملياً ، ومن منطلق أن هذه العرفة – بهذا التصور – تمثل في فرادتها وتميزها سلطة الأعلى التي يتم تع بها الخطاب الصوفي ، إذا ما فهمنا أن "لفظ السلطة هنا (يمثل) نوعا من العقل الباطن أو اللامعلوم ، الذي يمارسه نفوذه

---

(١) آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي ، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨، ٣٥.

(٢) آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، ٣٥.

(٣) آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، ٣٧– ٣٨.

بأشكال ضمنية داخل نطاقات واسعة بحيث لا يصح إسناده إلى أية جهة مسماة "[1]، حيث أن لكل قوة قدرة على التأثير في قوى أخرى ، ولكنها متباينة فيما بينه ا، كما لها القدرة والاستعداد للتأثر بالقوى الأخرى، بحيث أن كل قوة في حقيقتها تتضمن علاقات سلطة ، ولعل هذا ما جعلنا باستمرار أن نكون أمام حقل قوى في علاقات دائمة فيما بينها ، تتوزع وتتنوع حسب طبيعة تلك العلاقات، وهذا ما جعل فاعلية وتلقائية هذه القوى بما تمثله من سلطة تبعا لعلاقات التأثير والتأثر، إذا اعتبرنا أن القدرة على التأثر بمثابة **(مادة القوة)**، وأن القدرة على التأثير هي بمثابة **(دالة القوة)**، ولكنها في الحقيقة هي (دالة) تبقى مجردة، لا يمكن لها أن تتقمص أي شكل ، ولا تتجسم في هيئة ما، ولا تدرك عند **(التأويل)** بمعزل عن الأشكال الواقعية التي تتقمصها (ظاهريا) وبمعزل عن الأهداف التي تسعى إليها والوسائل التي تستعملها[2].

ولما كان الصوفي عارفاً ومعرفياً بنصه قيمة ومعياراً ووظيفة ، فإن الوصول إلى إدراك هذا النص يتطلب إدراكاً معرفياً من نمط العقل الصوفي، وهو نمط خاص في كل مقوماته، لأنه نص معرفة العارف ببرهان المعروف أصلاً بنصه ، وهذا لا يمكن أن يتأتى لكاشف بسيط الأدوات المعرفية، فضلاً عن أنه نص تجربة وممارسة خاصة ، تشكل بفعل سياقات خارجية وتداعيات ذاتية، وهو في ذات الوقت "نتاج فعل قوى مغايرة له . وهي القوى التي تتشكل من المؤ ولات الإمكانية الانفعالية "[3] التي يفعلها الموقف.

لذا يبقى هذا النص في حالة المسكوت مع ذاته ، لا يعلن عن مسكوته إلا ظاهره اللفظي القابل للتأويل، وهو تأويل هامشي لوجه معناه اللفظي يقبل كل تأويل.

إن النص الصوفي هو خلاصة (حلول ذاتي) بغض النظر عن تصوراتنا الشخصية، قبولاً أو رفضاً، لحالة ومشكلات التجربة الوجدانية ، باعتبارها تجربة من نوع خاص ، تتعلق بالقلب والحضور عبر رؤيا تسعى في كل أبعادها إلى إزالة الحواجز والحجب في التصور الصوفي ، ولعل ابن عربي كان أول من تنبه إلى واقع هذه التجربة وحقيقتها وصلتها بالخيال (من حيث كون الخاص الذي لا يدرك) عندما كتب عن الخيال وعلاقته بالقدرة الإلهية بقوله "فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجودا من الخيال ، فيه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهي ... فهو أعظم شعائر الله على الله ... ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء ، مع كونهم لا يعلمون ما قالوه، ولا يوفونه حقه. وذلك أن الخيال، وإن كان من الطبيعة، فله سلطان عظيم على الطبيعة

---

(١) المدخل الفلسفي للحداثة، ابن داود عبدالنور، منشورات الاختلاف، ط١،٢٠٠٩، ٨٣.

(٢) ينظر: المعرفة والسلطة، جيل دولوز، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ٧٧.

(٣) آليات إنتاج النص الروائي نحو تصور سيميائي، ١٠٨.

بما أيده الله من القوة الإلهية "[١]، وهذا ما دفع **محمود قاسم** [٢] وبعض الباحثين أن يرى التجربة الصوفية هي تجربة خيالية، فدرس الخيال على أنه أساس هذه التجربة وهذه المواقف والخطابات، ومن المستشرقين **هنري كوربان**[٣].

أما الباحثة وضحى يونس فقد توصلت ومن خلال النصوص / الخطابات التي درستها أن "الخيال الصوفي هو حلم الإسلام بالمستقبل ، حلم بالمبادئ التي يرغب الصوفيون ومَن على مثالهم تحققها، حلم بردم الهوة بين الحلم والواقع، وهذا الحلم المشروع هو وليد نزعة إنسانية تتوق إلى مثل أعلى ، وتعرض تصورات الإصلاح عبر تجليات مختلفة لمفهوم الخيال، ومعطياته "[٤]. وعلى هذا الأساس ، يمكن أن يكون الخيال الصوفي هو من قبيل التجليات التي تحايث الواقع ، ومن حيث ما تشكل مقارباتها (الحلم)، ومن مبدأ المحا ولة الخاصة في كينونة الحالة ، ومقتضياتها التي تحتمها، ولكنها في حقيقة الأمر لا تفسر هذا الواقع على علاته ، ولا تنظر إليه بكونه حالة مسلماً بها، وهذا ما أوقع الباحثة وضحى يونس في إشكالية إدراك مديات هذا الحلم ، وذلك بسبب الرفض المستمر والكامن في نفس الصوفي وفك ره وتجسده للحالة التي لم تدرك بالرؤية والشعور الإنساني البسيط هذا الواقع بكل إشكالياته ومعطياته.

لذا ، فقد كان من نتائج هذه التجربة التي تعد تجربة استجابة الذات / السمو في عالم السمو والعلو هي خلاصة المعرفة الصوفية التي تتطلع إلى الوصول والكشف والبرهان ، ولكذا، هي اختزال لحالة مرئية خاصة برؤى يصعب إدراكها في الواقع كما هي وبحالتها.

الخطاب الصوفي قراءة في مشكلات الاتصال

إن مشكلة الخطاب الصوفي أنه خطاب ذاتي محض ، له مركزه وسلطته المتعاليان على أي مركز وسلطة أخرى ، بل وحتى على الذات المنتجة للخطاب التي تتجسد في الواقع، من مفهوم وواقع التجربة وعلاقتها بالمركز، إذ إن الذات الصوفية تتفاعل مع اللامرئي بالواقع.

ومن هذا المفهوم فإن الخطاب الصوفي بوصفه خطاباً لغوياً إشارياً معقداً بحاجة إلى دراسة الأنظمة التي تشكله ، الأنظمة التي تتجاوز حدود الأنظمة اللغوية في النصوص الأ دبية الأخرى، لأننا نعتقد أن الخطاب الصوفي هو خطاب مستقل في ذاته ولذاته ، لا يمكن له من خلال القراءات المتعددة إلا التأويل في ظل هذه القراءات وأنظمتها . أما وجهات النظر الحديثة التي تقول أننا بالقراءات المتعددة يمكن أن نصنع أو ننتج من النص خطابات أخرى ، فهذا لا

---

(١) الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي، مصر ١٢٩٣ هـ، ٣/٥٠٨.

(٢) ينظر: الخيال في مذهب محيي الدين ابن عربي ، محمود قاسم، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر، ١٩٦٩، ٢.

(٣) ينظر: الخيال الخارق في تصوف ابن عربي،

(٤) القضايا النقدية في النثر الصوفي، وضحى يونس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦، ٦١.

ينطبق على الخطاب الصوفي ، لأنه خطاب ذاتي ، مرموز ، من نوع خاص ، لغة وصوتاً وصورة كما تقدم.

لذا، فهو بحاجة إلى نظرية تحليلية ونقدية معرفية جديدة، إذ "إن معظم البشر اليوم يهتمون باسخدام اللغة بغرض التواصل أكثر من اهتمامهم بدراسة النظام المعقد الكامن في عملية التواصل ذاتها ، ولا يعبأون بأن تكون اهتماماتهم مهددة من قبل أولئك الذين يجعلون من دراسة الكفاءة اللغوية ممارسة متماسكة ومستقلة"(١).

ولعل عمق العلاقة بين الداخل والخارج – ولخصوصية الذات المتصوفة كبعد ما بين الوجود الحقيقي والإلغاء المقصود – كان سبباً في ظهور الخطاب الصوفي متحداً بذاته في وجوده الكلي، فضلاً عما يفعله مكان وزمان التجربة والموقف ، وكأنه بنية خاصة متميزة براهنية التجربة/ الحدث، يعمد على تأسيس نفسه فينبثق من آناته خارج نطاق الجسد / المادة، من حيث مرصده التشكيلي الخاص به الذي يمتاز بالترميز والتكثيف من خلال سياق العلاقة ذاتها بين الصوفي/ الإنسان والمرموز من جهة ، وبين الصوفي/ الإنسان والعالم من جهة أخرى . وهذا ما يجعل الخطاب الصوفي يتمتع بحساسية (الانغلاق) على كونه الخاص بوجوده ، وهو احتجاب مقصود في الحالة والتجربة والموقف يصعب إدراكه.

إن هذا **(الانغلاق)** – ولعدم إدراك الحالة/ الموقف من فبل عامة الناس – يشكل نوعا من الوهم الحقيقي ، الذي يقف سداً منيعاً ، يمنع انفتاح النص الصوفي على متلقيه ، ويجهده في تأويلات لا حصر لها ، وذلك للبعد الخاص (المغلق) المحصور بين الصوفي ونصه بقوة الموقف. وهو بعد ذاتي خاص ، وموقف حلولي بحت بغض النظر عن قبول هذا الموقف أو رفضه فإنه لا يمكن اقتحامه إلا بالتأويل ، وإن كان جهد المؤوّل محدوداً ، ولكن لا محالة لكي لا يبقى النص/ الخطاب الصوفي بعيداً عن القراءة المعرفية.

بيد أن هذه الحساسية لا تقف حائلاً أمام (اللغة) بوصفها (الخارج) الذي يمثل هـ ذا الخطاب نفسه ، عندما تتحول إلى (حلم) يرصد المتخيل الصوفي ويحدد بعض عمقه ، ومن ثم يتحد به ، متفاعلاً مع ذات مقصودة وإن كانت خارج المرئي ، بكونها تشكل بعداً صوفيا . وهنا يكون للنص الصوفي محتويان ، **الأول** وهو محتوى ذاتي يشكل بماهيته (الأصل)، وفي هذه الحالة يتشكل العالم باشتغال متنام لا على أسس الوعي الإنساني الحقيقي ، المنبثق عن التفاعل مع الوجود، ذلك التفاعل الذي يقوم على المعرفة، فضلاً عن الحلم.

والثاني ، محتوى يقوم على وعي النص الصوفي من متلقٍ ، إذ إن حركية هذا الخطاب تتنامى على نحو آخر ، وتنفتح على أسس الوعي الإنسا ني الحقيقي في حالات تأويل المتلقي ،

(١) الشعرية البنيوية، جوناثان كلر، ت: السيد إمام، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ١٥٠.

عندما "تؤول صوفية اللغة بشدة تركيزها التعبيري وأدائها التشكيلي إلى إزاحة الحجب الشعرية بتمكين الزمن وتزمين المكان ، على النحو الذي تواجه فيه أنا " **(المتلقي)** وليست أنا **(الشاعر)** "مكانها الذي يتردد بين الذاكرة والحلم، ويكون متاحاً لها توجيه الخطاب المباشر ... المقترن بوعد احتمالي"(١) للانفتاح من خلال القراءات المتتالية للنص الصوفي ، والقابلة للتأويل في ظل اتحاد النص بمنتجه، وهو اتحاد لا يقبل الفصل من قبيل موت المؤلف وبقاء النص.

*****

إن ما تقدم يقوم على حقيقة مفادها أن جوهر الخطاب الصوفي بالأصل **يقوم على الانحراف**، وذلك من خلال تداخل نصين أو أكثر ، إذ إن النص الأول هو نص مغلق على ذاته لا يقترب من منطق العقل الطبيعي ، فضلاً عن تجاوزه المعتاد وابتعاده عن المادي الموضوعي بكل أشكاله في التصور المطلق . في حين يشكل النص الثاني أو النصوص الأ خرى تعبيراً عن عملية اتحاد متخيل من قبل متلق مع هذا الخطاب ، تسعى إلى إعادة صياغته صياغة تأويلية بحتة، كما تسعى إلى إعادة تشكيل نسقه من جديد وبمفهوم تأويلي ، وفق تصورات الوعي والحلم بظواهر النص وبواطنه . وفي هذه الحالة من التداخل الحركي الفعال تتمحور المعاني المؤولة وتتجلى في صور لا تمت إلى جوهرها بصلة حقيقية إلا بالقدر الذي نحتاجه.

إن التصوف ظاهرة ليست جديدة في حياتنا، فهي "ظاهرة دينية المنشأ، لأنها ظهرت ضمن العقائد والفلسفات الدينية ثم أخذت مكانتها في المصطلحات الرسمية والتعابير الخاصة ، وإن اختلفت تسمياتها من دين لآخر ، وقد استعارتها أنواع المعرفة والعلوم ، ومن لهم تفرد في بعض جوانب تلك المعارف ، والفنون، والأجناس الأدبية، ولاسيما جانب الشعر ، وحالات الوجد فيه مما يجول في النفس من مشاعر وأحاسيس . وقد عبر الشعر عن جوانب التصوف وما يعتلج في النفس من مكابدة"(٢)، وتتمظهر على نحو يتجاوز ظاهر النص بفضل طاقات التخيل والحلم التي تشترك فيها الحواس التي تعبر عن حالات التجلي الصوفي ، وتختزن مكامنه، لتشكل فضاءات واسعة للرؤيا.

إن الخطاب الصوفي الإسلامي هو استجابة لحالة تتداخل فيها الحواس الإنسانية على نحو غير معهود ، وغير اعتياد ي، لذا، فهي تحيل هذا الخطاب إلى طاقات جمالية ونفسية وذهنية ترتبط بتجربة الإيمان الكبرى ، إنه حوار بين حواس الإنسان وبين أهدافها ومطامحها القريبة والبعيدة، ومن خلال هذا الحوار الذاتي بين العابد والمعبود الذي يفتح الله سبحانه بين منافذ الإنسان الحسية والكون (٣) وصولاً للمعرفة التي ينشدها ، يبلغ الصوفي منيته في خطاب

---

(١) إشكالية التعبير الشعري – كفاءة التأويل – دراسة – د. محمد صابر عبيد، دمشق، ط١، ٢٠٠٧، ٥٤.

(٢) فلسفة التصوف في الأديان، عيد الدرويش، دار الفرقد، سوريا، دمشق، ط١، ٢٠٠٦،٨.

(١) ينظر: في النقد الإسلامي المعاصر، عماد الدين خليل، ٣١.

تكمن علته بأنه يسعى إلى تأصيل العلاقة الوجدانية بالمعرفة الإلهية من جهة وبين الإنسان والعالم من جهة أخرى، في حدود تجليات ومراتب معرفية تتحد بالتجليات الوجودية للكون.

الخاتمة

أما النتائج التي توصل إليها البحث فتتلخص ب:

- أن نص الخطاب الصوفي هو في واقعه الأولي نص لحظة أو حالة خاصة يزخر بالمعاني الكامنة، غير المعلنة، وأنه قابل للقراءات والتأويل المستمرين.
- يشتغل كل من اللفظ والمعنى في الخطاب الصوفي على مغايرة الآخر في النص ، ويتقابلان في تفكيك إشكالية الإ نسان وحلها ، بفعل العلة التي كونته ، والتحولات الفكرية والنفسية والروحية والجسدية ، وبفعل وعي الذات بكل قدراتها التي تتفاعل أثناء ولادة هذا الخطاب، وارتباطه بحالة الموقف الخاصة به.
- يتأسس هذا الخطاب وفق صيرورة يشكلها بعد معرفي خاص بفعل التواصل الروحي اللامرئي متجسداً في الموقف/ الحالة، وهو تطبيق حقيقي لا افتراضي لمقولة عربية مفادها (لكل مقام مقال) منتج أو تداولي مادامت حركة انبثاق المعنى لا تكتمل إلا بدلالات معجمية وسياقية ومقامية.
- إن فضاءات الخطابات الصوفية لا يمكن عدها أفضية اعتيادية، فهي أفضية تتعارض مع الفضاءات الواقعية والمتخيلة المعروفة ، كما تتجاوز الحلقات المتداولة التي تربط الواقع بالخيال، إذ تتمتع بطابع الحلول أو الإشراق في وسط ذاتي مغلق بحكم الموقف ، يقوم على العلاقات التي يكونها ويفرزها الوعي المتحكم بالوجود والكون، والمتميز بالمغايرة.
- إن الذاتية التي يتلبس بها الصوفي هي ذاتية حلول ذاتي في فضاء لا يدرك حدوده إلا الصوفي نفسه، بوصفه فضاء يتجاوز الحدود الجغرافية للمكان الذي يوجد فيه.
- يشكل الخطاب الصوفي بعده الحقيقي ، ولحظة استجلائه/ الزمان من خلال لحظة التوتر النفسي الذي يحتمه الموقف/ المكان، ومن هذا المفهوم يتبين أنّ عمق هذا التوتر النفسي والجسدي ذو طابع معقد في تركيبه الذاتي الآني، وفي ذات الوقت يعبر عن محتوى دلالي متعدد بسبب تعقيده، وتعدد معانيه، وعدم التعاقد على توحيد فهمه وإدراكه وقراءته.
- الخطاب الصوفي هو نسق إشاري من نوع خاص، تتمظهر فيه العلامات السيميائية.
- إن مفهوم التجربة الصوفية في الكتابة يقوم على التجاوز المحض لحالة الواقع ، لا على أساليب الكتابة العربية شعراً ونثراً – وحسب – بل على مضامينها ، بوصفها تجربة غير مصطنعة، تقوم على العلاقة بين الصوفي ومناجاته في موقفه ، وهي في الأصل علاقة تجربة حية يعيشها بكل طقوسها الخلوية . أن هذه المقولات الصوفية تعتمد على منطق

سلطة المركز الحاكم والموجه في ذات الموقوف في موقفه ، وهذه حالة غير عادية تقوم على وعي وإدراك.

- إن الخطاب الصوفي بوصفه خطاباً لغوياً إشارياً معقداً بحاجة إلى دراسة الأنظمة التي تشكله، الأنظمة التي تتجاوز حدود الأنظمة اللغوية في النصوص الأدبية الأخرى ، لأننا نعتقد أن الخطاب الصوفي هو خطاب مستقل في ذاته ولذاته ، لا يمكن له من خلال القراءات المتعددة إلا التأويل في ظل هذه القراءات وأنظمتها.
- إن الخطاب الصوفي الإسلامي هو استجابة لحالة تتداخل فيها الحوا س الإنسانية على نحو غير معهود ، فتحيل هذا الخطاب إلى طاقات جديدة جمالية ونفسية وذهنية ترتبط بتجربة الإيمان الكبرى ، إنه حوار بين حواس الإنسان وبين أهدافها ومطامحها القريبة والبعيدة.